حِوَار بين
متديّنَ و متبرّجة

قصّة قصيرة

بقلم :
محمّد فاضل

أذكرُ أني كنت يومها في محطة القطار، وكان الزّمن فصل الشتاء في يومٍ كثيف الغيوم، حتى أنّ أشعة الشمسِ عجزت عن اختراق طبقات السّحاب، فلم أكن أشعر بحرارتها تلامس جسدي، ربما لأنّ شمسَ الشتاء تضيء فقط ولا تُدْفئ. وفصل الشتاء يُعجبني كثيرًا فهو يفجّر في وجداني نوعاً من القوة الداخلية، إضافةً إلى أنّ المتبرّجات يَنقُصن أو يُنقِصن فيه من تبرّجهنّ احترامًا للبرد !

الصّمت يُخيّم على المحطة، لا تكاد تسمعُ شيئاً إلا بعض الأصوات البعيدة؛ ربما لقلة من ينتظر القطار، وفجأةً يمزّقُ خيمةَ الصّمت ويقتلعُ أوتادها صوتُ ارتطام كعبِ أحدهم بالدّرج الحديدي أثناء نزوله إلى المحطة، أخذَت طرَقات الحذاء صوتا متناسقاً بعد وصولها إلى الأرض، يستمرّ الصوتُ بالاقتراب وتبدأ سرعة الخطوات بالتباطئ، لتنتهي كل تلك الجلبة بالجلوس في نفس خطّ المقعد الذي أنا جالس عليه...إنها متبرجة !

الجمال الآن صار منتشرًا في كل مكان، يمكنك أن تراه حتى في الشارع، لكنها تبقى مجرّد محاولات لإظهار الجمال، إنهنّ نساءٌ عاديات جعلتهُنّ مساحيقُ التّجميل يظهرنَ بذلك الشّكل، جمالٌ لم تعد له أية مرجعية، جمال بلا هدف! أصبح الجمال اليوم لا يزيد عن كونه تجميعاً لرغبات

الرجل في جسدٍ يمشي في الطريق! وأدركتُ منذ مدة طويلة أن إطلاق النّظر إلى اللّذة المحرمة يُشعرني بالحسرة والهزيمة الذاتية، لكني كلما تجاهلت – وبصعوبة – تلك الرّغبة الجامحة في النظر كلما انكشف لي بعدها حقيقة وتفاهة اللّذائذ المادية، وأدركتُ شيئا من زيفِ ظاهرها الخلاّب، وكلما مدّني ذلك بقوة مضاعفة في مواجهة الفتنة، فالأمر أقل بكثير مما يبدو عليه! ليتني لم أُطلق بصري في كل تلك المرّات التي غرّتني فيها هالة البعيد والوهج الزائف! فات الأوان...

لكن يبدو أن صديقتنا المتبرجة لم يُعجبها هذا التجاهل، فرَفعتْ صوتَ سمّاعات الموسيقى وهي تضرب بحذائها أرضية المحطة لتلفتَ بعض الانتباه، لكن بلا جدوى! فقرّرتْ أن تتركَ التلميح إلى التصريح وبلغةٍ بوليسية:

- اسمع أنت! لماذا لا تنظر إليّ ؟!
- من ؟ أنا ؟
- نعم أنت! هل أنا متّسخة؟
- متّسخة؟ لا أظن! فرائحة العطر كانت تنبعثُ منكِ عن بُعد عشرة أمتارٍ تقريبا !
- إذن لماذا تُحدّق في الأرض طول الوقت؟

- ربما لأنّي أحترمكِ أكثر من الأرض !
- تحترمني؟ وهل يعني هذا أني أهينك بما أنني أنظر إليك الآن ؟!
- لا، لأنكِ هنا تنسفين الفارق بين الجبن والطبشور!
- الجبن والطبشور؟
- نعم، فكلاهما أبيض لكنّ الفرق بينهما بسيط؛ وهو أنّ الجبن يمكننا أكله أمّا الطبشور فلا يمكننا أكله !
- مثالكَ هذا مُضحك لكنيّ لم أفهم ما علاقته بالموضوع ؟
- طِبقًا لعلماء النّفس الجنسي فإنّ التباين بين الرجل والمرأة هو كالتباين بين الجبن والطبشور؛ لأن المرأة لا تُثار عند مشاهدتها لجسم الرجل بالمستوى الذي يُثار فيه الرجل عند مشاهدته لجسم المرأة، بعبارة أخرى فإنّ كافّة جسم المرأة مثير للرجل، بينما لا ينطبق هذا الأمر على الرجل.
- آه، الآن بدا كلامكَ منطقيًّا !
- الأكثر منطقيةً منه هو أن نقول أنّه من الظلم إثارة الغريزة في المواضع التي لا إمكان فيها لإشباعها، فإذا لم يكن بإمكاننا أن نُقدّم للجائع أنواع الأغذية فلماذا نثير شهيته من خلال الروائح المتصاعدة عن الأطعمة الشهية ؟

- لكنّ الإنسان يستطيع أن يقاوم غرائزه أليس كذلك ؟
- بلى، يستطيع الإنسان العاديُّ المقاومةَ ما دام التشويش لا يتجاوز حدّ المعقول، لكن أين هو حد المعقول إذا كانت صهاريج الشُحنات الكهرُشهوية تنهمر عليه يوميّا عبر عارضات الأزياء في الشوارع والجامعات والشواطئ ووسائل النقل وعبر الإعلام المرئي والمقروء ؟! فأيُّ إنسانٍ سويّ يستطيعُ تحمّل كل هذا الضّخ ؟!
- طيب، أنا لم أكن أنظر إلى الأمور من هذه الزاوية من قبل، أقصدُ أني لم أكن أراعي الجنس الآخر إزاء ما نرتديه نحن النساء من ملابس !
- بالطبع، فكلما جهِلت المرأة بغريزة الرجل كلما تمادت في تبرّجها غير مباليةٍ به !
- لكن ماذا لو كان قصدها أنها تحب الظهور بمظهر جميل فقط، ولا تقصدُ التسبّب بأية مشاكل للجنس الآخر؟ ببساطة...
- كل الطرق تؤدي إلى روما! لأنه يلزم علينا بعد ذلك القولُ بأنّ الرجل يُثار بقصدِ المرأة ونيّتها لا بجسمها وشكلها، ولم يقل بهذا لا علماء النفس ولا علماء الجسد! ثم لو فرضنا أنني جئتُ إلى منزلكِ

وطلبتُ منكِ أن تضعي أمامي ما تملكينَه من مال وذهب وحُليّ فهل ستفعلين ذلك ؟ ببساطة...

- من المفترضِ أن لا أفعل، فمن سيَعرض أغلى ما يملك للغرباء !
- إذن يتحتّم علينا أن نقول أيضاً أنّ أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا وبناتنا أولى بالإخفاء من كل تلك الأشياء الثمينة التي نملكها !
- محاولةٌ جيّدة لتجسيد المعاني المعنوية، لكنّ الأشياء أشياء والمرأةُ إنسان! والإنسان ينبغي أن يُحترم أيّا كان وكيفما كان، بغضّ النظر عن لباسه ومظهره !
- هنا مربط الفرس، فالتبرّج بوصفه تلميحًا صريحا إلى أمر معيّن أيّا كان هذا الأمر، وأيّا كان القصد من ورائه فهو يسحبُ عن المرأة صفة الأم والبنت والزوجة والأخت والجدّة ليصبغها بعد ذلك بصفة الجنسانية! بحيثُ لا تُحترم المرأة على أنها إنسانة، وإنما تُحترم كنوعٍ من الانصياع والإذعان الدّاخلي للرجل أمام سطوة أنوثتها، والفرقُ بين الإنسانة والأنثى هو كالفرق بين الجبن والطبشور !
- وهل يعني هذا أن أُجبر الناس على احترامي أو أتحكّم في طريقة نظرهم إليّ ؟! المهم أن أحترمَ نفسي!

- بصراحة أنا لا أحبّ التفريق كثيراً بين المتبرجة ومن يعاكسها من الشباب؛ لأنّ المتبرجة سواءٌ قصدت خطف الأنظار أو الأضواء أو الأعمدة الكهربائية فهي تبثّ عبر لباسها أو تصرفاتها موجات استفزازية للجنس الآخر، وهي دائما تحاول إقناعنا بأنّ كل تلك الألبسة والحركات مجرّد صدفة! والواقع أنّها تَتَموقعُ في الخندق المضادّ للرجل جهلاً أو سهواً بل وفي كثيرٍ من الأحيان مع سبق الإصرار والترصّد!
- لكن ماذا لو كان ذلك حقّا صدفة ؟
- الغريزة الجنسية لا تعرفُ الصُدف! فمتى ما توفّرت محفّزاتها اندفعت دون أن تنتظر الإذن من أحد، فهل يُتوقّعُ من جندي في برج للمراقبة أن يرى رجلاً مُلتحياً يتوجّه نحوه بسرعة وهو يرتدي بدلةً مضادّة للرّصاص ويحملُ رشّاشا ثم يبقى ينظر إليه، أو يحسن به الظنّ أو يقول ربّما هو يحمل قطعةَ شكولاطة على شكل رشّاش !
- لماذا كل هذه القسوة في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة ؟
- القسوة تصبح حنانا ورحمة إذا كان الهدفُ من ورائها إنقاذ أحدهم أو إيقاظه من أوهامٍ يحسَبها وردية !

- عن أيّ أوهامٍ تتحدّث؟ أنتَ مثير للشفقة حقا، ألم يخبركَ أحد بذلك من قبل؟
- مثيرٌ للشفقة؟ نعم أظنّ أنّ إحداهنّ أخبرتني بذلك في محطة للقطار! لكنّ المسكينة لم تعلم أنها هي من تثير الشفقة حين تكتشفُ أنها لم تكن تلفتُ بجسدها انتباهَ أشخاصٍ بحدّ ذاتهم، وإنما كانت تثير قوةً جنسيةً منحطّة، لا تختلف هذه القوة في طبيعتها وتكوينها من شخص لآخر؛ فلا وجود لشهوةٍ مثقفة أو لطيفة أو غير قاسية ! لا يوجد بنزين خاص بإطفاء الحرائق وإلا فهو ليس بنزينًا !
- لا يُهمّ، المهم أنّ المرأة الشريفة التي تعرف حدودها وتحترم نفسها، لا يمكن لها أن تدوس مبادئها أو تنسى قِيمها أم أنا مخطئة ؟
- المرأة الشريفة أسمى من أن تجعل جسدها هوية لترى نفسها وقيمتها الذاتية من خلاله، ثم غاية التبرج ليست بالضرورة إيقاع الرجل والمرأة في العلاقات الممنوعة كما يتوهّم كثيرون، فلو لم يكن من سيئاته سوى تسبّبه بخلق جوّ شهوانيّ ضاغط يدفع بالشباب خاصة العزّاب منهم إلى مواطن الفساد والمواقع الهابطة والمكالمات المشبوهة لكفى، لكنّ المشكلةَ أن غايته أبعد من ذلك بكثير!

- وكيف ذلك ؟
- كل المجتمعات قبل الحديثة عرفت الآثام واللّذات المحرمة كمجرّد استجابة ذاتية للرغبة الحيوانية، أما المجتمعات الحديثة الغربية منها أو الشرقية، الواقعة تحت تأثير ما تفرزه الحضارة الغربية من قيم وثقافة ومعلومات عبر وسائل الإعلام والاتّصال الدولية التي تمتلكها بإمكاناتها الضخمة ، وبمنتجاتها الرّقمية الثقيلة؛ وهو ما يجعل الثقافات المحلية ورصيدها الحضاري وحتّى العقدي عرضةً لاختراقات في غاية الخطورة، بل ولإعادة برمجة من طرف حضارةٍ مادية عديمة المعنوية، ففي آلية استكشاف هذه الحضارة وتفكيكها وإعادة تنظيمها لرعاياها عبر جهازها التشريحي الذي يُحدِّد كيف يمكن التحكّم بأجساد الآخرين "تشيّأت" المرأة! أي أصبحت شيئا أو سلعة ما، تُستخدم من خلال وسائل الإعلام ودور تصميم الأزياء ومؤسسات الإعلام كدمية وأداة للجنس، ينحصر دورها الرئيسي في إرضاء الرجال وإمتاعهم حين يشعرون بالملل، مما يترتب عليه الحطّ من قيمتها وتجريدها من إنسانيتها، فهذا ليس هو الفسق الذي عرفته المجتمعات الغابرة وإنما هذه إرادة تفسيق، لم تنبع من المشيئة الداخلية للذات أو المجتمع المحلي، بل من قوة

خارجية تعمل حتى على شرعنة الانحراف، من خلال عولمة التبرج، والأغنية المصورة، والفن الهابط، والأدب العاري، وعرض الأزياء والموضة، والدراسات المنحرفة والترويج لنمط حياة عالمي موحّد، ومهاجمة الأديان وأنماط العيش الدينية؛ مما جعل الدّين اليوم في حالةٍ من التّدهور حول العالم؛ وهذا يحدث لأول مرةٍ في التاريخ ! وهنا تُصبح الممانعة والحدود التي ذَكرْتيها لا تزيد عن كونها عدم رغبة تتعلّق بالمزاج أو بارتباطات شخصية لا أكثر ولا أقل، لا على أنها قيمة محمودة أو مبدأ أخلاقي !

- ألا تظن أنك تُبالغ قليلاً ؟
- هذا ما يقوله كل من خضع لإعادة البرمجة وغسيل الدماغ !
- أنا لا أؤمن كثيرًا بمثل هذه التفسيرات، لكني أرى أنّ ما سميته الآن بالمجتمعات الشرقية هي من ربّت نفسها على العقد الجنسية وإقامة الحواجز الرجعية في التعامل مع المرأة، كما أننا لازلنا أسرى قيم وتقاليد بالية تتسم بالتزمت والتشديد !
- وما الذي ينبغي القيام به في رأيكِ لتنفتحَ تلك العقد وتسقطَ تلك الحواجز حتى يتسنّى لنا الشعور بالهدوء والسلام الأبديين؟

- انا أرى أنه علينا أن نكون ناضجين وأن لا نتعامل مع الجنس كأداة خطرة أو بحذر مفرط، ففسح المجال للحب وللطبيعة البشرية كافٍ لإعادة التوازن لمجتمعاتنا الشرقية التي تعاني الصراع مع ذاتها قبل كل شيء !
- يبدو أنّي فهمتكِ، لكنّ هذا لن ينجح أيضاً !
- ولماذا لن ينجح؟
- لن ينجح بتفحص ما يسمى في التعبير الحديث بـ "آثار المبدأ" أو ما نسمّيه نحن المتدينين "لوازم القاعدة" للحل الذي طرحتيه الآن، فإذا دفعنا باقتراحكِ إلى أقصى غاياته ستتضح صورة مآلاته المستقبلية، فعلى فرض أنّنا نجحنا في بناء خطاب يستنهض الجميع لخدمة الجنس، وتطبيع ممارسته والكلام عنه في كلّ مكان، وفي أيّ وقت، ومع أيّ أحد، وطالبنا النّاس بأن يتركوا كل أعمالهم وما هم بصدد القيام به وأن يتفرغوا للقضية الجنسية، وأن يكرّسوا كل ما لديهم من طاقة وإمكانات وأن يضاعفوا جهودهم في تسخير الأنظمة والقوانين والإعلام والأقلام؛ لهدم الحواجز، وإزالة العراقيل، وطمس الضمائر، من أجل كرامة الجنس والحرية الجنسية، وأن نعرض كل ما لا يجب عرضه على التلفاز ودور السينما والصحف

والمجلات والمسرح والكتب المدرسية وعلى لافتات الإعلان في الطرق السريعة، فلن ننجح في حلّ مشكلة الجنس وإنما سننجح في تحويل كوكب الأرض إلى كومةٍ هائلة من الفوضى الجنسية لا غير! لأنّ بالوعة الجنس الجنسية إذا انفتحت فإنه يستحيل السيطرة عليها أو إشباعها وستُغرقُ الجميع في رمالها المتحرّكة، وسيُفضي ذلك بتلك الكائنات التي تُشبه البشر إلى التيَهان والحيرة، وستصبح غاية الإنسان هي عبادة الجنس وليست عبادة الله ! أم تُراني مازلتُ أبالغ ؟

- لا لستَ تُبالغ، لكنّك صرتَ تصدم! فلم أتوقّع أنّك ستُناقش موضوعاً بهذه الحساسية على هذا النحو... لقد فاجأتني حقّاً !
- لا داعيَ للتفاجئ، فقد أجرينا فقط بعض الاختبارات على اقتراحك الذي تفضلتِ به لكنّ عظامه هشّة لم تسمح له بالركض طويلاً في مضمار المنطق على ما يبدو !
- حسناً، بدأتُ أتّفقُ معك قليلاً... أنتَ قلت أنّ غاية الإنسان في هذه الحياة هي عبادة الله صح؟
- نعم، هذا صحيح!
- إذن لماذا ركّب الله فينا اللذة الجنسية ومشاعر الحب ؟

- ممتاز، اللذة الجنسية أو الحب ليسا مقصودين لذاتهما، فالله العظيم لم يخلق كوناً بهذا التعقيد من أجل اللذة الجنسية أو من أجل اللقاء التاريخي بين الفارس والجميلة النائمة فهذا عبث! وإنما هما خادمان لهدفٍ نبيل أسمى منهما وهو عبادة الله، واللذة الجنسية وما يترتّب عنها من سكينة وتجديد وحيوية إذا استغلّت لخدمة ذلك الهدف النبيل؛ فإنها تنقلبُ عبادة يكافئُ عليها الإنسان.
- عبادة؟ هل أنتَ متأكّد؟
- طبعاً، فأنا لا أخبركِ إلا بالأشياء التي أنا متأكدٌ منها.
- بما أنّ الأمور تسير على هذا النحو فما هو الحل في رأيك لعلاج مشكلة الجنس؟
- الذي ركّب فينا تلك الغريزة هو من جعل لها قناتها الطاهرة لتسير فيها، وما طريقة اللباس والزواج والآداب العامة إلا تنظيم لتلك الغريزة من غير تأليهها أو تجاهلها.
- طيب، لكني لازلتُ أرى أنّ ربط المرأة بالجنس مظهرٌ من مظاهر التخلّف، فمثل هذا الربط لا يوجد في المجتمعات الغربية مثلاً!
- صحيح، مثل هذه الظواهر لا وجود لها في المجتمع الغربي الذي في رأسك، وليس المجتمع الغربي المعروف جغرافيا ومكانيّاً !

- ماذا تقصد؟
- أقصدُ أنّكِ تتكلمين على غربٍ متخيّل غير موجود، أشبه ما يكون بالمدينة الأفلاطونية الخالية من كل النزوات البشرية، والمليئة بالناس الطيّبين الذين يعتبرون جميعَ نساءِ الأرض أخواتهم وأمهاتهم! الغرب الحقيقي منحرف سلوكيا وجنسيّا، لذلك مأْسسَ للعلاقات المفتوحة بين الجنسين؛ فالعقل الغربي لا يمكنه أن يفهم أو يستوعب رفض الصداقة الدافئة بين الشاب وصديقته، إن لم تكن تلك هي الغاية من الحياة بالنسبة إليه! إنها الحضارة الذي تغرق بتقدّمها المادي والتقني وسط مآزق أخلاقية جعلت منها حضارةً متعفّنة إلى الصّميم؛ بشهادة ما تنشره مؤسساتها العلمية المرموقة من إحصاءات للأزمات التي تعيشها كجرائم الاغتصاب، واللذة المحرمة، وتجارة الجنس، والمثلية وغيرها... وبإمكانكِ التحقق من ذلك إذا أردتِ !
- أوكي أوكي، سأحاول مراجعة ذلك في وقتٍ لاحق، على الرغم من أني لازلتُ أرى أنها مشكلة قيم وليس مشكلة لباس، فحتى لو أوجب الغرب لبس الحجاب على جميع نساءه لبقيَ يعاني المشاكل نفسها فلا علاقة للباس بالموضوع أليس كذلك؟

- ليس كذلك، لأنّ الحجاب مهما كان فهو إيجابية كلية والتبرج سلبية عامّة، ثم الغرب لن يفعل ذلك ولو أراد !
- ولمَ كل هذه الثقة ؟
- لأنّ لباس الإنسان مرتبطٌ أشدّ الارتباط بالقيم التي يؤمنُ بها وبنظرته إلى الكون والحياة والغاية منها.
- يبدو أني لم أفهم كلامك، ما علاقة اللباس بالكون والثقافة ؟
- لابدّ من أن تكون له علاقة؛ لأنّ لباس فاطمة لاينبغي له أن يُشبه لباس كاتْيا! ولأنّ الحضارات الشرقية التي لم تقع تحت سطوة الغرب لباسُها وزيُّها تميّز عبر التاريخ بصفتين: طويل وفضفاض، فيما نجد لباس الأوروبيين والأمريكيين عموما يتميّز بصفتين: قصير وضيّق، لماذا في رأيك ؟
- ربما ذلك راجع للتطور التّقني والتكنولوجي الذي طرأ على فن الخياطة في العصور الحديثة ؟
- في الحقيقة لا ! فخياطة الألبسة الضيّقة ليست بالأمر الذي كان يصعب القيام به قبل ألف عام ولا اليوم أيضًا، كما أنّ اختراع ماكنة الخياطة قبل 150سنة لم تساهم إلا في تسريع عملية الخياطة، فالإنسان الشرقي كان يستطيع خياطة الضيّق من

اللّباس ولم يفعل! والإنسان الغربي اليوم يستطيع حياكة الفضفاض والطويل من اللّباس لكنه لا يفعل !

- ولماذا لم يفعلا ؟
- لأنّ ذلك راجع إلى الفرق الجوهري بين الإنسان الشرقي والإنسان الغربي، في نظرة كلٍ منهما للعالم وفي تعريف كل منهما للإنسان نفسه! فالحضارة الغربية لا تجحد الله بوضوح وصراحة، ولكن ليس في مشروعها الفكري المعرفي مكان لله في الحقيقة، فلا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه! فماذا يُتوقّع من حضارة همّشت "البعد الإلهي" من حياتها وحساباتها ؟ إلاّ أن تنظرَ إلى الحياة نظرة الباحث عن اللّذة والمنفعة ولا تفكّر إلا في الطريقة التي تحقّق لها أقصى لذة ممكنة خلال الفاصل القصير بين الولادة والممات، والجسد أحد تلك الأشياء الموصلة إلى اللّذة... لا أدري إن لازالت الآنسة تستمع إليّ؟
- نعم أنا معك، أجوبتك هذه أصبحت تمحي معالم الخريطة التي أسلكها، فقبل هذا اللقاء كنتُ أشعر أنني على الطريق الصحيح أما الآن فاشعر أنني وسط مجاهيل !

- عليكِ اعتماد خارطةٍ أخرى، لأنّ واضع خريطتك التي تعتمدينها الآن لا ينوي تغييرها !
- تقصد الغرب؟ لعله لم ينتبه أنه في الطريق الخطأ وإلا لكان غيّر اتجاهه...
- هو متنبّه لذلك لكنّ تغييره للاتجاه سيُصادم مصالحه مباشرة !
- أية مصالح ؟
- مصالحه الاقتصادية التي ستتدهور وعلى نحوٍ رهيب !
- مصالحه الاقتصادية ؟
- نعم، فالاقتصاد الغربي يعتمد بشكل رئيسي على المرأة والجنس ليبيع منتجاته بداية بالموسيقى والمجلة والمسرح والسينما وانتهاء بمصانع أدوات التجميل والعطور والعمليات التجميلية وشركات تصاميم الأزياء العالمية، التي تخفي وراءها معاناة الملايين من الأيادي العاملة في المجتمعات الفقيرة، فقط من أجل خدمة رفاهية وذوق الإنسان الغربي الذي يتغنّى بالإنسانية والرحمة في كل وقتٍ وحين !
- يبدو أنكَ بدأت تصيبني بالذّعر، ليتني لم ألتق بك ولم أكلمك ولم تُخبرني بالذي أخبرتني به !

- هذا متوقّع!
- مُتوقّع ؟
- ربما لأنه كان عليّ أن أحذّركِ منذ البداية بأنّ النّهايات الحتمية لهذا الحوار قد تذهب ضد كل رغباتكِ وضد الأشياء التي تريدينَ القيام بها في هذه الحياة، وربما كان عليّ أيضاً تحذيركِ من أنّكِ قد تكرهين الحقيقة! لكن إذا كنتِ ذلك الصنف من الناس الذين يعتقدون أن كل شيء على ما يرام وأن بإمكانهم الحصول على كل ما يريدون في حياتهم...أستطيع أن أحذرك بأن هناك أسبابا عديدة حول لماذا لن تستمر الأمور في السير لصالحك لوقتٍ أطول، لكن إذا كنتِ ذلك الصنف من الناس فأنتِ لن تستمعي على أية حال...
- حسناً، يبدو أني فهمت قصدك، أنت تعني اتخاذ قرار لارتداء الحجاب صح ؟
- يبدو أني لم أقصد هذا مع الأسف! فالحجاب بمعناه المادي تستطيع أي امرأة وأي فتاة ارتداءه لمدة قد تطول أو تقصر كحجاب موسمي! أو ترتديه أثناء أدائها للصلاة مثلاً ! أو تختزله في خمار تضعه على رأسها، أو ترتديه لأنّ حالتها الاقتصادية لا

تسمحُ لها بمطاردة الموضة، أو تُزيّن الحجاب في حدّ ذاته كمحاولةٍ لخداع الله العظيم ! فالحجاب على هذا النحو يكون قد تعرّض لعملية اغتيال معنوي من المرأة، التي اجتثّت منه أبعاده الأخلاقية والفلسفية والعقدية وحوّلته إلى قطعةِ قُماش يشاركها في ارتداءها حتى الدّجالون !

- الأمر معقّدٌ إلى هذه الدرجة ؟
- لا أريد تثبيطكِ، لا أريد ذلك بصدق! لكنّ الأمر يحتاج إلى الجهد، ولا شيء في هذه الحياة إلا ويتطلب بعض الجهد للوصول إليه، لكنّ الأمر الذي ستُقدمين عليه سيتطلّب الكثير من الجهد لبعضهنّ !
- وما طبيعةُ هذا الجهد ؟
- الجهدُ هنا لن يكون جسديّا ولا حتى ذهنيا بالمعنى الذي يجب عليكِ فيه أن تفكري طويلاً، لكن لا داعيَ للقلق فإن كنتِ مستعدّةً لاتّخاذ الخيار الأكثر منطقية، وكان هذا كل ما يهمّكِ فأظنّ أنّكِ ستكونين على ما يرام. أو ربما لستِ موافقة على ما أقول، أو أنتِ موافقة على كل ما أقول لكنّكِ ستستمرين في

العيش بالطريقة نفسها التي عشت بها دائما، أو على الأقل ستحاولين...

- سأحاول ؟
- نعم، قلتُ ستحاولين لأنّكِ لن تكوني قادرةً على ذلك، وأنا أتكلم عن تجربة! شيءٌ واحد مؤكّد وهو أنّكِ حين تعرفين الحقيقة فلن تعودَ حياتكِ كما كانت أبدًا، وستلازمك دائمًا، فمهما حاولتِ الهرب فلن تستطيعي أن تهربي من نفسكِ !
- من أنت ؟
- أنا الذي يجيب على أسئلتك للتوّ !
- تجيب على أسئلتي؟ أنت تصيبني بالذُّعر نعم !
- آسف، لكن ما هو قادمٌ الآن أشبه ما يكون بالقيادة على الأرض الوعرة عندما يتعلق الأمر بنوعية الاستنتاجات والقرارات التي عليكِ اتخاذها !
- أنا أحب أن أكون شجاعة وأحب تشجيع الآخرين أيضا، وأعتقد أنني أتمتع بقدر معيّن منها، لكني لم أظنَّ من قبل في أني سأكون في حاجة إلى نوع خاص من الشجاعة... طيب، بما يتعلق بموضوع الحجاب هل صحيح أنه لم يُذكر في القرآن الكريم ؟

- في الواقع هذا الأمر واضحٌ في القرآن لدرجة أنه من المخجل إيراد شواهده، فبعد ختمةٍ واحدة ستكتشفين حقيقة ما أقول.
- ختمةٌ واحدة؟ يعني أقرأ القرآن كاملاً من بدايته إلى نهايته ؟
- أجل، مع تدبر لمعانيه واستحضار أنه آخر رسالة إلى البشرية، وستشعرين بلذة عند قراءته ولو كنتِ جائعة، ولو كنتِ محزونة، ولو كنتِ مدينة...
- ستكون تجربة ممتعة على ما أظنّ، سأحاول فعل ذلك على الرغم من أني لم أقم بهذا من قبل لكن لحظة ! تذكرتُ شيئا..
- ما هو؟
- أمي لن تفرح كثيرًا بقرار ارتدائي للحجاب ! ما العمل ؟
- لكنّ الله سيفرح بذلك! ثم في أسوأ الظروف لا أظن أن أمكِ ستمانع إن ارتديتِ لباسا محتشمًا، حتى لا تكوني سبباً في حسرةٍ تنزل على قلب أحدهم، أو في نظرة منحطّة تتّجه إلى جسدك.
- أرجو ذلك، قل لي أيضا ما رأيك بمن تؤخّر ارتداء الحجاب إلى ما بعد الزواج وهي صادقة في ذلك ؟
- لا أظنها فكرة جيدة، فمن يريد التقاط زوجته من المزاد العلني في سوق العري والتبرج فهو إما ذو عقلية من جنس المتغايرات في

باب الاستعراض الجسدي، وإما أنه صديم الجمال وخضراء الدّمن وهي "المرأة الحسناء في منبت السوء"، وإما أنه ديوث لا غيرة له! مع اعتبار أنّ الغريزة الجنسية هي أحد أهم عوامل الزواج، في حين يتضاءل دورها في الحفاظ على كيان الأسرة كلما تقادم الزواج، ويأتي دور الحب والتفاهم والوفاء بدلا من دورها.

- لعل هذا ما يفسّر الطلاق المبكّر الذي يهمسُ به واقعنا اليوم..
- نعم، كنتيجة حتمية لمحاولة إحلال الجنس – وهو وظيفةٌ حيوانية منحطّة رُكّبت فينا لنستمر ولنتقارب كأسر ومجتمعات – مكان الحُبّ – وهو وصفٌ عميق ملئ بالمعاني والرّموز والأسرار، قد تستمر تداعيات ذلك حتى إلى ما بعد الزواج؛ فبعد أن تتقدّم الزوجة في السنّ وتغرب شمس جمالها وتزداد حاجتها إلى حبِّ زوجها وحنانه ووفاءه، تُشرق شمس المقارنة التي يوفّرُها التبرج بين الزوجة الوفية وعارضات الأزياء في الشارع، لتدفع بمعدّاتها القاسية بـ 20 أو 30 سنة من الذّكريات الوردية خارج المشهد !
- غريب، وكأني أستحضر كل تلك المسلسلات والروايات التي تحمل مثل هذه الأفكار... وبالنسبة لمن تخشى نزع الحجاب بعد ارتدائه ماذا تفعل لتحافظ عليه ؟

- من حيث المبدأ فإنّ الطريق إلى الجنة ليس له خرائط غامضة، أو أنفاق سرية، أو شِفرات خاصّة، ومفتاحه الأول هو المجاهدة، فماذا ستفهمين مثلاً من أحدهم اعتنق الإسلام صباحًا ثم يصرّح في المساء بأنه يفكّر بالعودة إلى دينه الذي كان عليه ؟
- أفهم أنه لم يكن واثقاً من قرار اعتناقه للإسلام.
- نفس الشيء ينسحب على أختنا المتبرجة، فتردّدها في اتخاذها لقرار ارتداء الحجاب أو تذبذبها بين ارتداءه ونزعه ناجم عن انصهار الإرادة في مصانع الهوى، لأنّ المتبرجة تعتمد على نظرات الناس وإعجاباتهم لتشحن ثقتها بنفسها والحجاب لا يوفّر لها مثل هذه الخدمة، وإنما يوفر لها شحناً للثقة بطريقة أخرى ومن منبع آخر !
- منبعٌ آخر ؟
- نعم، المنبع الإلهي! فالمرأة في نسختها الأصلية غير المعدّلة لا تحتاج لإبداء معصمها أو شعرها أو بعضٍ من جسدها لتشعرَ بذاتها، لأنّ الجمال الجسدي يستمدّ ثقته من الشكل، والشكل منبعه محدود فهو يهرم ويتغيّر ويموت، أما الروح فتستمد ثقتها من اللاشكل، من الكينونة، من قوةٍ لا محدودة، من المنبع الإلهي!

وأصحاب الجمال الجسديّ غالبا لا يثقون في المديح والثناء على مواهبهم مثلا أو ملكاتهم؛ لاعتقادهم بأنّ ذلك التقييم قد تأثر بجاذبيّتهم وبصورتهم الخارجيّة.

- ها قد بدأت القيادة على الأرض الوعرة الآن !
- أرجو أن تكون القيادة باتجاه العودة إلى الأصل !
- سأتّجه إلى ما اطمأنّت إليه نفسي أعدك... ماذا عن حرارة الصيف والحجاب ؟
- الاحتجاج بالفصول في مواجهة التعاليم الإلهية منطقٌ جاهلي قديم غسله الزمن، ردّ عليه القرآن (وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)
- أنا أيضا سألتُك فقط... ما رأيك أيضاً بالتي تخشى أن تدخل دوامة التصنيفات إذا هي ارتدت الحجاب؟ والتصنيفات كثيرة اليوم كما تعلم !
- التصنيفات من حيث الأصل ثنائية وإنما كثّرها البشر، فمن لم يكن من حزب الله فهو من حزب الشيطان، ومن لم تكن من عباد الله فستكون من عبيد الموضة؛ فالتصنيف الثنائي يطال كل أحد وفي كل الأحوال !

- إجاباتك تتسم بالمنطقية والبساطة وكأنها لا تصدر عن متدين ! فقد كنت أتوقع أن أجد الكثير من الجمود والتحجر في إجاباتك...أنا حقّا مندهشة !
- وأنا أيضا أشاركِكِ نفس الاندهاش، فلم أتوقع أنّ هناك متبرجة تضع عواطفها جانبا لتستعمل عقلها، أثناء الحوار على الأقل !
- هذا ما كان أبي يوصيني به دائما: "أنصتي إلى عقلكِ وليس إلى قلبكِ يا ابنتي" وسأحاول تفعيل ذلك خارج الحوار أيضاً! وماذا عن التي تترك الحجاب لأجل العمل ؟
- الحجاب ليس لديه أية مشكلة مع العمل، وإنما مشكلته مع من يريد تحويل المرأة إلى فحمٍ لتسخين السوق وإشعالها، وكلما ضعفت قدرتها على تهييج الغرائز وتثويرها أُستبدلت بغيرها وهكذا دواليك! فمثلاً لكي تُباع المزيد من إطارات الجرارات لابدّ من وضع امرأة نصف عارية إلى جانبها! ولا بدّ أيضاً أن يكون باعة "السوبر ماركت" من النساء الشابات، وفي معرض الكتاب، وفي الانتخابات البرلمانية، والمجالس النيابية، وشركات الاتصال، وعلى معجون الأسنان أيضا !
- هذا استغلال للمرأة !

- طبعاً !
- لكن لا أحد يُسمّيه استغلالا، الجميع يُسمونه عملا !
- هذا الكلام ينطبقُ على مشاهدَ كثيرةٍ اليوم، فمن يقاومُ المحتلّ من أجل تحرير أرضه يسميه الجميع إرهابيّا، والجميع يسمّون الخمور مشروبات روحية، ويسمّون الرّبا فوائد، والخيانة حبًّا، ويصفون من ينغمس في الشهوات من الشباب بأنه يعيش وقته، والجميع يسمي لباس المرأة إذا كان ملتسقًا بجسدها "لباسا" ولا أحد يسميه جلدها الثاني !
- يبدو أن أشياء كثيرة صارت تسمى بغير اسمها في هذا العالم الذي فقد الكثير من سكانه بوصلاتهم... بقيَ لديّ آخر سؤال؛ وهو أني أشعر بداخلي بأني عشتُ بعيدة عن ربي في كل تلك الأيام التي مرت من عمري، فهل سيقبلني الله إن عدت إليه الآن ؟
- لكلّ تقي ماضٍ، ولكلّ مذنبٍ مستقبل.
- هذه أجمل جملة سمعتها في حياتي كلها !
- وأنا أيضاً، فهذه الجملة لها وقعٌ خاصٌّ في نفسي؛ فقد كانت سبب رجوعي إلى أصلي في يوم من الأيام...

- الحمد لله الذي قدّر لي هذا اللقاء فلم أتوقع يوماً أني سأخوض حوارا مع متدين، كان هذا ليكون آخر شيء لأقوم به في حياتي فضلاً على أن تتغيّر نظرتي لأشياء كثيرة كنت أحسبها ثابتة !
- أنا لم أقم بشيء يُذكر، فقد كنتُ أجيب عن أسئلتك فقط... أظنّ أنّ القطار قادم !
- حقاً؟ وكيف عرفتَ ذلك ؟
- صوتُ المحرّك...
- هذا صحيح سمعكَ مرهفٌ جدّا !
- هل بإمكانكِ إخباري عن وجهته من فضلك ؟
- لماذا ؟ ألا يمكنكَ أن... هذا غير معقول! أنتَ ...